المحيطون ...

في المغرب الإسلامي والعروبة

في ضوء الدراسات الانثروبولوجية

دكتور عبد الباقي علي قصة

وردت الاشارة الى «بني مرينا» في شعر امرئ القيس في قوله:

ملوك بني حجر بن عمرو   لساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا   ولكن في ديار بني مرينا

وحجر بن عمرو هو الجد الأكبر لامرئ القيس، ولكن الذي حدث أن الحارث بن عمرو (٤٩٠م) ابنه، وكان ملكا على كندة(١) بعد أبيه، وسقوط دولة التبابعة في اليمن على يد الأحباش، أضعف من قوة كندة فوجه نظره شطر العراق، وطمع في ضم الحيرة الى مملكته الصغيرة، وراح يترقب الفرص لتحقيق مطامعه، وقد حانت الفرصة حينما تغير كسرى «قباذ» ملك الفرس على «المنذر بن ماء السماء» ملك الحيرة بسبب امتناع الأخير عن اعتناق المزدكية(٢) ومن هنا نجد أن الحارث يتجه بقواته ويغزو الحيرة، بتحريض من كسرى «قباذ»، وذلك لاعتناق الحارث المذهب المزدكي، ولكن الأمور لا تصفو تماما للحارث فسرعان ما قتل «قباذ» وآل الملك الى «أنو شروان» الذي فتك بالمزدكية، وأعاد المنذر بن ماء السماء الى ملك الحيرة، وكان ذلك شديداً على الحارث، فنشبت بينه وبين المنذر معركة انتهت بقتل الحارث وولديه في ديار بني مرينا(٣).

موطن المرينيين الأصلي:

كان الأمل عندما زرت قلعة المنصورة مع قسم التاريخ بجامعة قسنطينة معرفة شيء عن هذه القلعة التي تقوم أطلالها في إحدى ضواحي تلمسان، وقد طلب اليّ إلقاء كلمة عن هذه القلعة، ومن أجل الحصول على معلومات تاريخية عن هذه القلعة خلُت إلى المركز السياحي بتلمسان التي أمدتني مطبوعة بالعربية وأخرى بالفرنسية، فقرأت فيها «المرينيون عرب رحل قدماء، حاصروا تلمسان سبع مرات بعد أن قضوا على العرش الموحدي بالمغرب الأقصى ففي سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) بدأ الحصار الدامي الذي عزل تلمسان عن العالم مدة ثمان سنوات (٦٩٨هـ - ١٢٩٩م الى ٧٠٦ - ١٣٠٧م) وشيدوا أثناء الحصار مدينة المنصورة المفتخرة بمسجدها وقصرها ومخازنها وحدائقها وحماماتها وديارها».

وقد أثار انتباهي الى ما عرضته في التمهيد السابق قول النشرة «عرب رحل قدماء» اذ كيف لعرب رحل أن يبنوا هذه القلعة، بل أن يبنوا «مدينة المنصورة المفتخرة بمسجدها وقصرها ومخازنها وحدائقها الخ».

من هنا أدركت أن الموضوع في حاجة لدراسة للبحث عن موطن هؤلاء العرب الأول، وكيف هاجروا إلى شمال افريقية، ومتى حدث ذلك؟ وهل كان ذلك قبل الاسلام، الشيء الذي توحي به كلمة «عرب رحل قدماء» مع أن ما قاموا به من بناء يتمثل حتى الآن في قلعتهم التي تمتاز منارتها عن قلعة الحماديين بالاتقان والزخرفة، لذلك رجحت أن يكون هؤلاء العرب تواجد قبل وصولهم الى المغرب في مركز حضاري هام، عرفوا فيه الاستقرار، ودرسوا فن المعمار وأتقنوه، ومن ثم لا محل لوصفهم بالعرب الرحل، لأن البدو لا يعرفون من البناء إلا الخيام وبيوت الشعر، أما هؤلاء فقد أسسوا مباني ذات قيمة حضارية فلابد أن تكون قد مضت فترة تاريخية طويلة على انتقالهم من البداوة الى الحضارة.

وقد كان الأمل أيضا أن يعطيني صاحب كتاب «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» مادة علمية غزيرة في هذا الموضوع حسب المعتاد إلا أنه

وللأسف لم يعط من المادة إلا القدر الذي أثبت فيه عروبة هذه القبيلة وموطنها الأصلي حيث قال «مرينا: بطن كان يقطن الحيرة وينتسب الى لخم من القحطانية»(٤).

ومن هنا يتبين لنا أنهم نشأوا في منطقة اليمن ذات الحضارة العريقة، وانتقلوا مع اللخميين الى وادي الرافدين، ومعنى ذلك أنهم حينما وصفوا بالعرب الرحل يعتبر هذا الوصف ليس له مدلول تاريخي، وأنهم أصحاب قدم راسخة في الحضارة العربية القديمة منذ فجر التاريخ حتى قيام دولة الاسلام، وانتشاره في المشرق والمغرب.

كيف وصل المرينيون الى المغرب الأقصى؟

كان لابد – والحالة هذه – من الرجوع الى العلامة عبد الرحمن بن خلدون للفصل في هذا الموضوع ولكي يجيبنا على هذا التساؤل، ولكننا وجدنا ابن خلدون يقول في معرض حديثه عن تلمسان «فكان – أي أبا سعيد بن خليفة – كثيراً ما يخرج من زناتة من أهل المغرب الأوسط مثل مغراوة وبني يغرن وبني يلومو وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين»(٥).

وفي الفصل الثامن من الكتاب الأول من الباب الثالث من المقدمة تحت عنوان «في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة» يقول «ثم اعتبروا بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناتة بني مرين» الى أن يقول «يقال ان عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف».

ثم يقول «ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة»(٦) وذكر قصة ابن بطوطة حينما عاد من رحلته من المشرق (كانت الرحلة – من سنة ٧٢٥هـ – ٧٥٤هـ) ويبدو أن لونا من الاختلاط وقع بين بني مرين وقبيلة زناتة حتى ظن ابن خلدون أنها بطن من زناتة فقد قال في معرض حديثه عن مناصب الدولة «وأما دولة زناتة بالمغرب وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم»(٧).

واذا كان حديث ابن خلدون عن المغرب حديث خبير الا أن حديثه عن أصل بني مرين يشوبه الغموض، وقد اعتبر بني مرين من زناتة مستدلا بالوضعية الجغرافية، من ذلك قوله عن بعض شارات الملك ومنها الرايات «ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين – كما هو عند زناتة – وقد بلغت أيام السلطان أبي الحسن (وهو من بني مرين) فيما أدركناه مائة من الطول، ومائة من البنود ملونة بالحرير ومنسوجة بالذهب»(٨).

ومن ذلك قوله «وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنوانها وشموخها رسما جليلا لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصرهم بالأندلس» وهو يعني اتخاذ الخاتم والطراز(٩).

ويقول ابن خلدون في معرض حديثه عن الدعاء للخليفة «وكذلك يعقوب ابن عبد الحق ما هذا (كذا) دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص، وثالث ملوكهم وتخلف بعض أيام عن شهود الجمعة فقيل له: لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن له في الدعاء له، وكان ذلك سببا في أخذهم بدعوته» الى أن يقول «وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين، فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلاثين سنة، واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم، ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسيهم بمراكش»(١٠) وهكذا انتقل هذا الخلط الى بقية المؤرخين المحدثين حتى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي فهو يقول في التأريخ لبني مرين «المرينيون هم فخذ من بطون القبيلة العظيمة زناتة كانت مساكنهم ومواطنهم وراء تلمسان غربا على ملوية، وجنوبا الى نواحي سجلماسة – تافيلالت – وبصحراء فيقيق الى أرجاء الأغواط وربما يخطون في ظعنهم الى بلاد الزاب»(١١) الى أن يقول «وهم قوم مرهوب جانبهم، شديد بأسهم كثير جمعهم يضاهون في مجتمعهم أمة العرب والفرس واليونان»(١٢).

وهنا نجد الشقة صارت بعيدة بين ابن خلدون والشيخ عبد الرحمن الجيلالي فابن خلدون يرى أن عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف بينما الشيخ عبد الرحمن يرى أنهم يضاهون في مجتمعهم أمة العرب، فكيف تم لهم ذلك اذا لم يكن قد مر على هجرتهم الى بلاد المغرب وقت طويل؟.

وضعية المرينيين في المغرب الأقصى والأوسط:

وقد أبلى بنو مرين بلاء حسنا في «نصرة الموحدين على خصومهم بني صنهاجة»(١٣) الا أنهم انقلبوا على الموحدين، ولم يزالوا يثيرون الفتن والغارات بأرجاء المغرب الأقصى بدافع التزاحم على الملك والتنافس على الرئاسة حتى أحسوا ضعف دولة الموحدين، فاقتحموا «تلة» سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) ثم فتح أميرهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة مراكش سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) فقضوا بذلك على عرش الموحدين.

وقد أصبح المرينيون قوة في البر والبحر، فقد كان لهم أسطول عظمت شوكته بالبحر المتوسط، والمحيط الأطلنطي، في عهد السلطان أبي الحسن المريني فقد خرج من تونس بستمائة سفينة(١٤)، وقد وصف المؤرخ الفرنسي «أندري جوليان» فيقول «إنه من أقوى الملوك وأعظم السلاطين على الاطلاق في القرن الرابع عشر الميلادي، ويقول ابن خلدون عن أبي الحسن: ان أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصارى وعديدهم»(١٥) وقد صارت وهران في أيامهم ميناء بحريا كبيرا، كان عليه عبوس بن سعيد «وقد ضبطها وثقفها وملأها قوات ورجالا وسلاحا، وملأ مرساها أساطيل»(١٦).

وقد سجل الشعر ذلك فقال أبو القاسم الروحي يمدح أبا الحسن حين وحد أقطار المغرب الثلاث سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) من قصيدة طويلة:

تملكت شطر الأرض كسبا وشطرها	وارثا فطاب الكل إرثا ومكسب
بجيش على الألواح والماء يمتطى	وجيش على الضمر السوابق يركب
وجيش من الاحسان والعدل والتقى	وذاك لعمر الله أغلى وأغلب
فلا مركب إلا يزين راكبـــــا	ولا راكب إلا به ازدان مركب

آثار المنصورة أو مدينة المنصورة:

المتأمل فيما بقى من آثار في المنطقة يجد أن القلعة مازالت قائمة جهة الغرب، وفي مقابلها بقية سور لمدينة جهة المشرق بوابته الكبرى منحرفة قليلا

جهة الغرب ومن هنا يتبين أن القلعة غير المدينة وأن المرينيين لم يبنوا خلال فترة الحصار غير القلعة أو أنهم بنوا القلعة والمدينة فخربت المدينة وبقيت القلعة.

أما المدينة المقابلة فقد بناها الموحدون، وسورها قائم حتى الآن، ذلك أن عبد المؤمن بن علي حاصر تلمسان(١٧) سنة ٥٢٣هـ (١١٤٣م) ولكنه عجز عن فتحها أمام صمود المرابطين بقيادة تاشفين خليفة وابن علي بن تاشفين، واتجه عبد المؤمن الى وهران، ثم عاود تلمسان فدخلها.. وأصبحت تلمسان منذ ذلك التاريخ عاصمة للموحدين، أما الذي ابتنى السور الموجود حاليا فهو أبو عمران الموحدي، ولا تزال باب القرمادين قائم من أهم بقاياه»(١٨).

المرينيون وبنو عبد الواد :

تعددت الأسباب التي أدت الى الصراع بين بني مرين وبني عبد الواد، فكان منها الرغبة في السيطرة والتوسع من طرف بني مرين، هذا بالاضافة الى «المنافسة على رئاسة زناتة والتشوف الى السلطان المطلق بالمغرب الاسلامي»(١٩) ويعرض الشيخ عبد الرحمن الجيلالي لسبب ثالث يبدو غير منطقي فيقول «لما أشرفت سفينة العراك والحرب بالأندلس على شفا المنحدر والغرق، وانكشف للملوك بني مرين انهزام دولة الاسلام هناك قد حانت أو كادت، وكان شعور الدولة المرينية بالمسئولية العظمى الملقاة على كاهلها يومئذ قد تضاعفت بحكم أنها سيدة العدوتين، وأنها وارثة عرش الموحدين طالما أخضعت لعرشهم الأندلس بما فيها من رعايا وملوك وشريف وصعلوك فساءها أن تضع الكارثة بالأندلس على مرأى ومسمع منها بدون أن تكون قد اتخذت هذه الحال المتوقعة عدتها، أو تحتاط لها على الأقل لكيلا تتهم بين الأمم بالاهمال وعدم الصلاحية للملك، فاهتمت وفتئت بالعمل على مزيد الاقتراب من الساحل الشرقي باتخاذ عاصمة ثانية لها بالمغرب الأوسط ليتيسر لها الدفاع عن أرض الأندلس»(٢٠) فيممت تلمسان وعزمت على فتحها، ويبدو أن هذا الذي خيل الينا أنه غير منطقي كان داخلا في اطار استراتيجي للقيادة العسكرية المرينية، من حيث إنها أرادت أن تكون هذه البلاد بثرواتها داخلة في نفوذها، حتى تستعين بهذه الثروة على خوض غمار حرب ضروس مع الأسبان.

وأدى ذلك الى الحصار الذي فرضه المرينيون على تلمسان، ومما يؤكد وجهة النظر التي أبديناها أنه في سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) غزا أبو يوسف يعقوب

المريني سجلماسة (تافيلالت) فاقتحمها، واستعمل في هجومه لأول مرة في تاريخ المغرب الاسلامي البارود، وأسر سادة بني عبد الواد وفيهم القائد عبد الملك، وفي ذلك يقول ابن خلدون «ولما فتح السلطان أبو يوسف المغرب، وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته وغلب عبد المؤمن على دار خلافتهم ومحارسهم، وافتتح طنجة وطوع سبتة مرفأ الى العودة وثغر المغرب سما أمله الى بلاد القبلة الجنوب - فوجه عزمه الى افتتاح سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وادالة دعوتهم اليها في العساكر والحشود في رجب من سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٤م) فنازلها وقد حشد اليها أهل المغرب من زناتة والعرب والبربر، وكافة الجنود والعساكر»(٢١).

ويؤيد ابن خلدون وجهة النظر التي تقول «ان العرب أول من استعمل المدافع النارية، قبل أوربا بزمن طويل، وأن أوربا عرفت البارود وصناعته عن طريق العرب»(٢٢) وفي ذلك يقول «ونصب عليها - أي أبو اسحاق - آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزائنه أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة»(٢٣) وقد تم لبني مرين فتح سجلماسة وماحولها، أما السبب المباشر في غزو بني مرين لتلمسان الى «ايواء صاحبها الثوار على دولة مرين، ولقد حاول من قبل استسلام هؤلاء الثوار المشاغبين وانتزاعهم من يد بني زيان «عبد الواد» فلم يسمحوا له بذلك وحينئذ تقدم بنو مرين لحصار تلمسان ونصبوا عليها المجانيق، وأطلقت أيدي الجند فيها فعبثوا بها وأخذوها بالنهب والتخريب، ثم أقلعوا عنها، وان كل ما كان بعد ذلك من عداوة أو ضغينة بين بني زيان (والمرينيين) كان منشؤها هذه الحادثة» ذلك أن عصيان أبي عامر وخروجه عن طاعة أبيه السلطان أبي يعقوب والتجائه الى تلمسان واحتمائه بسلطانها عثمان بن يغمراسن»(٢٤).

وينضم الى هذا السبب المباشر سبب اخر أقل مباشرة ذلك أن ثابت بن منديل أمير مغراوة استصرخ السلطان أبي يوسف يعقوب سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) على ملك تلمسان عثمان بن يغمراسن لرد عادية قومه عنه، فأرسل يوسف بشفاعته في ذلك الى عثمان فرفضها، كل ذلك من وراء غزو تلمسان سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) وقد بدأ بأعمال تلمسان ففتح ندرومة وهنين ووهران ومزغران، ومازونة ومستغانم وونشريس ومليانة والمدية وتنس وشرشال والبطحاء وتدلس، واستولى على جميع ضواحي شلف كلها وأذعنت له مدينة الجزائر ماعدا تلمسان.

المرينيون بالأندلس :

في الوقت الذي حشد فيه أبو يوسف يعقوب المريني جنوده وخرج لغزو تلمسان غرة صفر سنة ٦٦٩هـ (١٢٨٠م) وماكاد يتحرك حتى جاءه من يستصرخه من بني الأحمر لنجدة المسلمين في الأندلس، فجمع كبار مستشاريه وعرض عليهم الأمر «فاتفقت كلمتهم جميعا على تقديم انجاد الأندلس وحمايتها على غزو تلمسان، فعدل السلطان يومئذ عن خطته المرسومة، وراسل صاحب تلمسان في الصلح»(٢٥).

يقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي «ولما حل المرينيون بالأندلس، وامتلكوا شطرا منها أخذت عقارب الحسد تدب في قلوب الأندلس من بني الأحمر وانتشر بينهم داء الأثرة، فعمد سلطانهم الى يغمراس الزياني طالبا مودته وصداقته وواصله بهدايا أندلسية فخمة وأموال عظيمة على أن يشغل عنه ملوك بني مرين بمشاغبتهم واحداث مشاكل لهم بالمغرب، وما كاد يشيع خبر اتصال أهل الأندلس بيغمراس حتى بادر السلطان أبو يوسف المريني من صاحب تلمسان»(٢٦) وقد تكرر ذلك من المرينيين رغم رفض بني زيان (بني عبد الواد) وهكذا أدى عدم التفاهم الى التلاحم، وكانت موقعة «وادي تافنة» حيث انتصر بنو مرين وأسسوا المنصورة أثناء حصارهم لتلمسان القديمة، وهو أطول حصار في التاريخ حيث دام ثماني سنين وثلاثة أشهر وأياما(٢٧).

بناء المنصورة :

أثناء هذا الحصار قام أبو يوسف يعقوب المريني ببناء المنصورة على نحو أربع كيلومترات غربي تلمسان، وكان ذلك في شتاء سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م)، ويروي أن الذهب الذي طعمت به منارة هذه القلعة بلغ سبعمائة دينار، ثم السور الثاني حول المنصورة بعد أن انتشرت حولها المنازل والقصور الأنيقة والحمامات العامة والفنادق والأسواق وأجريت المياه بالبساتين سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) وقد وصفها ابن مرزوق الخطيب فقال «منصورة تلمسان التي لم ير الراءون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها، وأما قصرها ومسكن الامام بها فقد رأيت كثيرا ممن دخله من المتجولين ممن رأى العراق ومصر والمباني القديمة في

الأندلس ومراكش أجمعوا كلهم على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره، وبحق ماقالوه، وأما دار الفتح والبستنة وما اتصل بها، والمشور فما أظن أن المعمور اشتمل على مثلها».

من المسئول عن تخريب المنصورة ؟

تقول النشرة التلمسانية «اغتيل السلطان أبو يوسف من طرف أحد مواليه ففك المرينيون الحصار، ورجعوا الى المغرب (الأقصى) فهدم التلمسانيون (يعني الزيانيين) المدينة، وكان على رأسها في ذلك الوقت أبو زيان، وكان ذلك انتقاما لما عانوا من هموم الحصار الطويل».

ويقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي «كان اغتيال السلطان أبي يوسف يعقوب المريني سنة ٧٠٦هـ (١٣٠٦م) سببا مباشرا في اخراج بني مرين عن تلمسان، وانفكاك الحصار عن أهلها، فتفرقت يومئذ جنودهم واختلفت كلمتهم بموت أبي يوسف، وتنازع على العرش المريني كل من ولده وأخيه وحفيده أبي ثابت عامر بن عبد الله، واستند الحفيد هذا الى بني زيان مستظهرا بهم على مزاحمية»[٢٨].

زناتة أصلها ونسبها وأهم فروعها :

اذا كان قد وقع الوهم بأن بني مرين فرع من زناتة، فانه من الضرورة البحث عن أصل هذه القبيلة ونسبها وموطنها الأصلي وأهم فروعها، يقول المؤرخون المحدثون الذين اهتموا بشئون الدراسة القديمة مثل «Gautier» : «لم يعثر على اسم زناتة مع أسماء القبائل البربرية (الأمازيغ) التي وجدت في كتب المؤرخين القدماء من يونان ورومان وبيزنطيين».

أما ابن خلدون فيقول : «اعلم أن أصل هذه اللفظة هي صفة جانا التي هي اسم الجيل كله».

أما نسب زناتة فقد ناقشه ابن خلدون فأتى بآراء المؤرخين الذين ينسبونها

الى حمير أو التبابعة أو العماليق، وأنكر ذلك جميعها، ثم اكتفى برد زناتة الى الجنس السامي، وليست زناتة وحدها بل البربر والبتر، وان كان المؤرخون المسلمون على أن البربر بترا وبرانس ساميون.

ولكن الواقع التاريخي لا يوافقنا على أثر لقبيلة زناتة داخل تقسيم القبائل البترية ذلك أن المؤرخين «قسموا كتلة البتر الى أربعة قبائل هي : ضريسة ونفوسة واداسة وبنو لوى»(٢٩).

وما وجدت قبيلة زناتة إلا بدخول المسلمين الفاتحين، ذلك أنه من الصعب تحديد موقع زناتة جغرافيا مثل صنهاجة مثلا، لأنهم طوال حياتهم بدو رحل، على أن ابن خلدون يحدد موطنهم «بالمغرب الأوسط حتى انه لينتسب اليهم فيقال وطن زناتة»(٣٠).

ويرى بعض المؤرخين أن زناتة فرع قبيلة ضريسة «والذي يلاحظ اختفاء اسم البتر شيئا فشيئا أمام اسم ضريسة، ثم اختفاء هذا الأخير أمام اسم زناتة بالتدريج»(٣١).

ويورد بن حميزة في أطروحته «دور قبيلة زناتة في الحركات المذهبية في المغرب الاسلامي» فنجد من فروعها بني يفرن، ومن أشهر أفخاذهم «بنو واركو ومرغيسة» وقد انتشروا بافريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط، ثم تراجعوا الى المغرب أمام زحف القبائل الطرابلسية من لواته وهوارة المنتشرة بالجنوب التونسي وضواحي الأوراس.

ومنها مغراوة «وكانوا من أوسع بطون زناتة» ولمغراوة فروع كثيرة أهمها بنو سنجاس وبنو غبار، وبنو ريغة وبنو ورا، وكان انتشارهم بجبل راشد (عمور) وجبل كيكرة والزاب وشلف، وقسنطينة ووراكلا والأغواط ومراكش والسوس.

ومنها جراوة ومن فروعها بنو يرينان وجديجن أيضا والأولى تسكن جبل الأوراس والثانية ملوية والثالثة المغرب الأوسط، ومنها واغمرت وبنو ومانو وبنو يلومي وبنو بالدس وبنو واركلا، وبنو دمر ومن بطونها بنو ورغمة وبنو ورنيد وبنو ورتاتين وبنو غرزول وبنو تافورت.

على أن أعظم فروع زناتة هما قبيلة جراوة التي قاومت الفتح الاسلامي أولا، ثم ساعدت على إنجاحه مؤخرا بانضوائها تحت الرايات الاسلامية ويليها في ذلك بنو يفرن فأين كان بنو مرين هؤلاء؟.

خصائص زناتة :

اذا كنا قد عرضنا في أول مقالنا هذا لخصائص «بني مرينا» وملنا الى أنهم من أصل حضاري قديم فان كل الدلائل الانتروبولوجية تشير الى أن زناتة كانوا بدوا ولم يعرفوا الاستقرار، وفي ذلك يقول الادريسي ان من المعروف عن زناتة أنهم «قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان الى مكان غيره»(٣٢).

ومن أهم خصائص زناتة ما يأتي :

١ – تختلف لهجاتهم عن سائر اللهجات البربرية وتعود في أصلها الى السامية لما لها من خصائص مشتركة مع اللغة العربية.

٢ – الفروسية ذلك أن أكثر زناتة فرسان يركبون الخيل»(٣٣).
٣ – التكهن : يقول الادريسي «لايدري أحدا من الأمم أعلم من زناتة بعلم الكشف»(٣٤) ويبدو أن المقصود التكهن بحالة الطقس المعروفة عند العرب بعلم النوى أو الأنواء.

٤ – استهلاكهم اللحم بكثرة فأغلب طعامهم المشوي.

وكل هذه الخصائص تربطهم ربطا محكما بالعرب، الشيء الذي جعلهم فيما رواه ابن خلدون – ينتسبون للعرب، ولعل ذلك هو الذي دفع ابن خلدون الى ضم بني مرين اليهم، وربما كانت هجرتهم الى شمال افريقية في وقت واحد.

على أن العربي ارتبط بالجمل، وليس معنى ذلك أن فروسية زناتة تبعدهم عن استعمال الجمل في انتجاع الصحراء فالثابت «أن الجمل وحيد السنام كان موجودا بالصحراء ثم تعرض للفناء بعد العصر الجيولوجي الرابع، ثم ظهر

من جديد قادما من الشرق في القرن الاول الميلادي، وعلى وجه التقريب في نهاية القرن الأول الميلادي(٣٥)، وهو التاريخ المناسب لانهيار سد مأرب، على أن الهجرات من اليمن بدأت قبل ذلك من عدن الى افريقية، فقد أصبح الجمل منتشرا في القرنين الثالث والرابع الميلادي ما بين الحدود الموريطانية في الشمال الشرقي وحدود برقة شرقا، ومما يدل على أن العرب جاءوا قبل الاسلام الى شمال افريقية من الجنوب واستوطنوا الصحراء «أن البربر لم يعيشوا في الصحراء قبل أسرة سيفيروس Severes التي حكمت الامبراطورية الرومانية في الفترة الواقعة بين ١٩٣ - ٢٣٥م» تاركين الشمال الذي استولى عليه الرومان لاستغلاله في الزراعة.

أما متى كان ميلاد زناتة؟ فالجواب أنها جاءت من الجنوب في نجد سنة ١١٥ ق.م الميلاد أو قبل ذلك بقليل من اليمن، والدليل على ذلك أن كتاب اليونان والرومان لم يشيروا الى غابات النخيل الموجودة بوادي ريغ جنوب بسكرة بينما وجدت تفاصيل دقيقة في كتب التاريخ الاسلامية تتناول «نخيل القورارة كل هذا يدفع الى الاعتقاد بأن مؤسس هذه الغابات جاءوا مهاجرين من الشرق في عام الفيل»(٣٦).

من هنا يتبين لنا أن العرب وصلوا الى شمال افريقية من الجنوب ومن الشمال الشرقي، والاحتمال الأقرب الى التصديق أن «بني مرين» ومن الشمال الشرقي قبل الاسلام، وأنهم اتخذوا في أول أمرهم من قبائل زناتة حلفاء لقرب اللغة والاتفاق في الخصائص.

● الهوامش ●

(١) كندة قبيلة قحطانية هاجرت بعد سيل العرم، ونزلوا في مكان يشرف على حضرموت فسمي باسمهم، ثم استقر بهم المقام حوالي سنة ٤٥٠م في بلاد نجد، يقول نيكلسن «كانت كندة محالفة للفرس»، وكانت «عبارة عن تحالف يجمع قبائل متعددة ذات نظام قبلي.

(٢) المزدكية تنسب الى مزدك الذي دعا الى الاشتراك في المال والمرأة من حيث انهما من وجهة نظره سبب الصراع بين الناس، وقد قضى على هذا المذهب على يد أنوشروان.

(٣) د. محمد مصطفى النجار: تاريخ العرب ط الأزهر سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م ص ٦٢.

(٤) راجع حـ ٣ ص ١٠٨ وراجع لسان العرب لابن منظور جـ ١٧ ص ٢٩٢ والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني حـ ٢ ص ١٦ والقاموس المحيط للفيروزابادي جـ ٣ ص ٢٧١.

(٥) راجع العبر حـ ٧ ص ٤٥.

(٦) المقدمة ص ٢١٥، ١٤٧، ١٦٢.

(٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٥.

(٨) المرجع نفسه ص ٢٣١.

(٩) نفسه ص ٢٣٨.

(١٠) المرجع نفسه ص ٢٧٠.

(١١و١٢) تاريخ الجزائر العام ص ٧٣.

(١٣) المرجع السابق ص٧٣.

(١٤) نفسه ص ٧٥.

(١٥و١٦) المقدمة ص ١٢٥ والعبر حـ ٧ ص ١١٧.

(١٧) عرفت تلمسان في عهد الرومان بومارحليه، وفي القرن السابع الميلادي عرفت بأحادير ويبدو أن تسميتها بتلمسان جاءت في العصر الاسلامي.

(١٨) النشرة السياحية التلمسانية ص ١.

(١٩و٢٠) المرجع السابق ص ٧٦.

(٢١) لاحظ قول ابن خلدون «من زناتة والعرب والبربر» فذلك يدل على أن المرينيين أدخلوا زناتة في خضمهم الكبير في دولتهم فصاروا بعد أن كانوا ثلاثة آلاف جموعا غفيرة. العبر حـ ٧ ص ١٨٨.

(٢٢) د. غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٥٧٧ ط القاهرة سنة ١٩٤٨م.

(٢٣) ابن خلدون : المرجع السابق حـ ٧ ص ١٨٨.

(٢٤) الشيخ عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ص ٧٨، ٧٩.

(٢٥) نفس المرجع ص ٨٠.

(٢٦) المرجع السابق ص ٨١.

(٢٧) ابن خلدون : المرجع السابق حـ ٧ ص ٩٥ وما بعدها.

(٢٨) المرجع السابق ص ٨٣.

(٢٩) Le Passè de L'Afrique du Nord. Paris 1952 P. 208

(٣٠) العبر حـ ١ ص ٢، وتنطق «شاتة» راجع ابن حزم جمهرة أنساب العرب ص ٤٦١.

(٣١) انظر الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى للسلاوي حـ ١ ص ٣١.

(٣٢) بن حميدة : قبيلة زناتة ص ٦.

(٣٣) العبر جـ ٢ ص ١.

(٣٤) الأدريسي : وصف افريقية الشمالية ص ٦١.

(٣٥) نفس المرجع ص ٦١.

(٣٦) نفسه.

(٣٧) بن حميدة : المرجع السابق ص ١٤.

(٣٨) S.G-Sall: la lRipolitaine et le Sahara P. 160.

(٣٩) بن حميدة : المرجع نفسه ص ١٦.